خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا ميرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

يوم ٢٦/ ٠٧/ ٢٠١٣

في مسجد بيت الفتوح بلندن

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم* الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيم * مَالك يَوْم الدِّين * إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ * صِراط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْر الْمَغْضُوب عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٢-١٥٤)

لقد قلتُ في الخطبة الماضية بأن القرآن الكريم بدأ نزوله في شهر رمضان، لذا فإنّ للقرآن الكريم علاقةً خاصة بشهر رمضان، لكن هذه العلاقة لن تنفعنا إلا إذا تأملنا في أحكام القرآن الكريم إلى جانب تلاوته، وحاولنا أن نعمل بحسب الأوامر الواردة فيه، وإلا لن يتحقق الهدف الذي من أجله نزل القرآن الكريم. وقد ذكر المسيح الموعود عليه السلام أن القرآن الكريم يهدف إلى تحويل الناس من حالة الوحشية إلى حالة الإنسانية ثم جعْلهم أناسا متحضرين بتعليمهم الآدابَ الإنسانية لكي يتجاوزوا المراحل كلها بحسب الحدود الشرعية وأحكامها، ثم يجعلهم أناسا ربانيين.

ثم يقول عليه السلام: "فليكن معلوما أن القرآن الكريم يتضمن التكميل العملي والعلمي. وفي ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾ إشارة إلى التكميل العلمي، أما التكميل العملي فقد ذُكر في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ بأن ننال النتائج الأتم والأكمل. فكما أنه الشجرة لا تحمل أيّ ثمار ما لم تنمُ نموا كاملا، كذلك لو لم تسفر الهداية عن نتائج أعلى وأكمل و لم تملك قوة النمو لكانت ميتة."

ثم يقول: "القرآن الكريم هديٌ مَن عمل به نال أعلى درجات الكمال، وتوطّدت صلته الصادقة بالله تعالى لدرجةِ أنّ أعماله الصالحة التي يكسبها بحسب أحكام القرآن الكريم تنمو وتثمر مثل الشجرة الطيبة التي ضُرب بها المَثل في القرآن الكريم، وتنشأ فيها حلاوة ومذاق من نوع معين."

فلو قرأنا القرآن الكريم كما هو حقه وتوجَّهْنا إلى العمل بأوامره لحدث في الإنسان تغيُّر عملي بصورة واضحة ولنشأت فيه قِيمٌ أخلاقية عليا.

يقول المسيح الموعود ﷺ بأن الذي يخرج من الحالة الوحشية وينفِّذ على نفسه تعليم القرآن الكريم يصبح إنسانا متحضرا وربانيا. والمراد من الإنسان الرباني هو ذلك الذي يكون على صلة عميقة وصادقة مع الله تعالى وقد ذكره القرآن الكريم بضرب مَثل الشجرة الطيبة، حيث يقول تعالى: "أصلها ثابت وفرعها في السماء". وقد وضّح المسيح الموعود ﷺ هذا الأمر في مكان آخر وقال بأن الله تعالى زاد الموضوع شرحا فقال بأن الإيمان بمنــزلة البذرة والشجرة، والأعمال بمنــزلة الريّ أي أنّ مَثل الأعمال كمثل ماء يروي الشجرة. لقد ضُرب في القرآن الكريم مَثل الفلاح الذي يزرع البذرة، وكما أن الأعمال تبذر بذرة الإيمان، فهناك ريّ وهنا هي الأعمال.

قال حضرته: اعلموا أن الإيمان بلا عمل كالبستان بلا نهر. *(أي أنه يكون خاليا من الأنهار والماء)* قال حضرته: إن لم يهتم مالك البستان بسقاية الشجرة التي يغرسها فإنها ستموت يوما ما. كذلك حال الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾(العنكبوت ٧٠) أي لا ترضوا بالأعمال الهينة بل ثمة حاجة للمجاهدات الشاقة في هذا السبيل."

ولأجل ذلك ذكر حضرته أنكم لا تستطيعون أن تصبحوا كما يريدكم القرآن الكريم ما لم تطبقوا على أنفسكم جميع الحدود الشرعية التي وضعها لكم والأحكام التي يأمركم بها. ولا يتأتى ذلك بسهولة بل يقتضي مجاهدات كما قال المسيح الموعود ﷺ. فلا نستطيع أن نستفيد من شهر رمضان أو من نــزول القرآن فيه إلا إذا جعلنا أحكامه جزءًا من أعمالنا وغيّرنا حياتنا بحسبها وجاهدنا في هذا السبيل، فلو سعينا للعمل بهذه الأحكام بتحمل مشقة لاستطعنا إنشاء صلة مع الله تعالى وفهمنا الهدف الحقيقي من نزول القرآن الكريم. فإن شهر رمضان ينبهنا إلى القيام بالمجاهدات. هناك كثير من المجاهدات التي نقوم بها في رمضان، منها الامتناع عن الأكل والشرب وعن بعض الأمور الجائزة الأخرى، ولكن إلى جانب ذلك ينبغي أن نسعى للعمل بأحكام القرآن الكريم في هذه الأيام التي نبذل قصارى جهودنا لفهمه بتركيز خاص، وذلك لتتحول هذه الأعمال إلى فروع خضراء تتعلق بالسماء وبالله تعالى، أي نصبح من أولئك الذين يستجيب الله تعالى دعواتهم، فينبغي أن نقوّي جذور إيماننا ونجعل من أعمالنا غصون خضراء تصل إلى السماء.. أي تنال دعواتنا القبول عند الله تعالى.

لقد نبهَنا الله تعالى في الآيات التي تلوتها أمامكم إلى بعض الأحكام. وهي من تلك الأحكام التي تنيل قربَ الله تعالى وتوفِّق المرءَ للالتزام بالتقوى وترشده إلى أداء حقوق الله وحقوق العباد. ويكون قد اتضح للجميع ما هي هذه الأحكام من خلال ترجمة هذه الآيات، ولكنني أخبركم مرة أخرى للتذكير.

قال تعالى: يجب أولاً ألا تشركوا بالله شيئًا، ثم قال بأنه للإحسان إلى الوالدين أهمية كبيرة جدًّا فلا تنسوه أبدًا فلقد حُرّم عليكم الإساءة إليهما. والأمر الثالث هو ألا تقتلوا أولادكم خوفًا من الفقر وقلة الرزق. والأمر الرابع هو أن

تجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن بل لا تقربوها. والأمر الخامس هو ألا تقتلوا النفس التي حرم الله تعالى إلا بالحق، وهناك تفاصيل كثيرة تتعلق بكيفية جواز هذا الأمر. والأمر السادس: لا تقربوا أموال اليتامى، والأمر السابع أنهم إذا بلغوا الرشد فادفعوا إليهم أموالهم ولا تلجأوا إلى الأعذار (لإبقاء أموالهم عندكم)، الأمر الثامن أن تعدلوا في الكيل والوزن، ثم يجب أن تتمسكوا بأهداب العدل فلا تمنعنَّكم أيُّ قرابة أو صلة من العدل والإنصاف، الأمر العاشر أن تُوفوا بعهودكم التي قطعتموها، ثم ينبغي أن تسعوا جاهدين باستمرار للثبات على الصراط المستقيم. فهذه هي الأمور المهمة وتفاصيلها وبالتمسك بهذه الأمور يُدعى الإنسان سالكًا على سبل التقوى هذه، وساعيًا لنيل قرب الله.

أول ما نهانا الله عنه بل عدَّه حراما هو: أن لا تشركوا أحدا بربكم وخالقكم والذي يربي وينمي قدراتكم الدماغية والجسمانية والمادية والروحانية والذي يهيئ لكم كل أنواع النعم.

فأي عاقل يمكن أن يشرك أحدا بالله القادر القوي والواهب لهذه النعم، لكن الناس لا يعلمون ويشركون به، ولا يفهمون مفهوم الشرك بتعمق ويتخذون آلهة مقابل الإله العظيم مما يبعث الإنسان على حيرة من أمره، فهذه الحالة ظلت تظهر في كل عصر، ولذلك حين يأتي الأنبياء فأول ما يدعون إليه هو عدم الشرك، ويوجهون إلى إنشاء العلاقة بالله. فالشرك ذنب لن يغفره الله، وفي هذا الصدد يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: كل خطأ قابل للغفران لكن الإيمان بأن أحدا معبود وقادر دون الله أيضا فهو خطيئة غير قابلة للعفو (أي لن يغفرها الله) *فقد ورد* ﴿إن الشرك لظلم﴾ و﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فليس المراد من الشرك هنا عبادة الأحجار وغيرها، بل من الشرك أيضا أن يتكل المرء على الأسباب ويركز على معبودات الدنيا (*أي أن يهتم الإنسان بالأشياء الكثيرة التي يستفيد منها*) فهذا أيضا من الشرك. فمَثل المعاصي (*أي الآثام العامة*) كمثل النرجيلة لا يجد المرء أي مشكلة في الإقلاع عنها، لكن مثَل الشرك كَمَثل الأفيون الذي إذا أدمنه الإنسان يستحيل أن يتخلى عنه.

ثم قال سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وهو يوجهنا إلى الموضوع بالتعمق والتفصيل أكثر: الشرك ثلاثة أنواع أولها أن يعبد المرء الأوثان والأشجار (*فبعض الناس يعبدون الأشجار أيضا*) فهذا أبسط أنواع الشرك وأعمّها، والنوع الثاني أن يتّكل المرء على الأسباب أكثر من اللازم، (أي أن يتجاوز الإنسان حدود الاتكال على الأسباب) كأن يقول: "لو لم يحدث ذلك لهلكتُ"، فهذا أيضا من الشرك. النوع الثالث للشرك أن يَعدّ المرء نفسه شيئا يعتد به أمام الله سبحانه وتعالى (*أي يزعم أنه أيضا قادر على إنجاز شيء، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: أنتم لا تستطيعون شيئا، بل على المؤمن أن يقول قبل كل عمل "إن شاء الله"*) *فقال*: لا أحد يتورط في الشرك العام في عصر النور والعقل هذا، (*أي لا أحد يتورط في النوع الأول من الشرك كأن يعبد الأشجار وغيرها*) إلا أن الشرك في الأسباب قد انتشر كثيرا في عصر التقدم المادي هذا (*أي قد كُثر الاتكال على الأسباب والوسائل والناس*) فمن الأسباب كما قلت الاعتماد على الناس والثروة والأمتعة وأرباب العمل. (*أي حيث يعمل الإنسان يتملق مَن هيأ له العمل والمسئولين فإذا حصل هذا أي بدأ الإنسان يتكل على الأسباب أو إنسان معين أكثر من اللازم فهو ينسى الغاية من خلقه.*)

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام حين يزعم الإنسان أن وجود شيء ما ضروري له لأقصى حد فذلك الشيء يصير معبوده، فحين يزعم الإنسان أنه لا يستطيع العيش دون شيء معين فيصبح ذلك الشيء مقابل الله ويصبح شيئا يُعبد

ويصبح إنشاء العلاقة به أيضا عبادةً، بينما الجدير بالعبادة هو الله ﷻ وحده. يقول الله ﷻ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وما هي العبادة؟ يقول المسيح الموعود عليه السلام في ذلك: أيها الناس اعبدوا الله الذي خلقكم أي آمِنوا بأنه وكيل أعمالكم، أي أنّه ﷻ وحدَه هو مُنجز جميع أعمالكم ومُكمِلها ومُوصلها إلى النهاية وواهِب النجاح. فهذه هي عبادة الله وعبوديته فتوكلوا عليه.

ثم قال: أيها الناس اعبدوا الله الذي خلقكم، ولا شك أن من خلقكم هو يستحق العبادة، أي هو الحي وحده فأحبوه. *أما الآلهة الأخرى لأهل الدنيا فستفنى، إنما الحي هو الله ﷻ وحده*. يقول: إنما الإيمان أن ينشئ المرء العلاقة الخاصة بالله ويعدّ جميع من سواه لا قيمة له، أما الذي يحب الذرية أو الوالدين أو شيئا آخر لدرجة يشغل باله كل حين وآن، فهذا أيضا عبادة الأوثان. فلا تنحصر عبادة الأوثان في أن يمسك المرء الوثن كالهندوس ويسجد له، فالحب والمودة أكثر من اللازم أيضا يُعدّ من العبادة.

ثم يقول حضرته: أيها الناس اعبدوا ذلك الإله الوحيد الذي لا شريك له الذي خلقكم وآباءكم، ينبغي أن تتقوا ذلك القادر القوي الذي جعل الأرض فراشا والسماء سقفا، وبإنزال الماء من السماء خلق لكم أنواع الرزق من الثمرات، فلا تجعلوا هذه الأشياء التي خُلقت من أجل فائدتكم شريكة الله متعمدين.

ثم يقول حضرته مبيِّنا حقيقة العبادة: إن الغاية المتوخاة من خلق الإنسان هي العبادة حصرا، (*كما سبقت الآية*) والمراد الحقيقي من العبادة هو أن يتخلى الإنسان عن كل قسوة واعوجاج وينــزِّه أرض قلبه كما ينــزه الفلاح الأرضَ (قبل الزرع). يقول العرب: مَوْرٌ مُعبَّدٌ: أي كما يُجعل الكحلُ دقيقا جدا لكحل العيون كذلك عندما لا يبقى في أرض القلب حجر أو حصاة أو اعوجاج وتكون مستوية تماما وكأنه لم تبق فيه إلا الروح فقط، فهذا ما يسمَّى العبادة. فحين تُصقل المرآة وتُجعل نقية تظهر فيها الصورة، كذلك لو عولجت الأرض بالأسلوب نفسه لنبتت فيها أنواع الثمار. فالإنسان الذي خُلق للعبادة إذا طهّر قلبه ولم يُبقِ فيه حجرا أو حصاة أو اعوجاجا لانعكس اللهُ فيه. أقول مكررا إن أشجار حب الله ستنبت فيه وتنمو (إذا نَقِي القلب وبدأتم تعملون كل عمل من أجل الله ﷻ فقط وآمنتم بأنه هو صاحب كل قدرة، وتوكلتم عليه فسوف يظهر الله فيه وتنمو فيه أشجار حب الله) وتحمل الثمار الحلوة الطيبة التي تكون مصداق "أُكلها دائم".

لقد فسر حضرته الموضوع في موضع آخر قائلا: القيام أمام حضرة العزة بخشوع دائم لا يمكن دون الحب الشخصي أي لا يمكن للإنسان أن يقوم أمام الله بمنتهى التواضع والانكسار ما لم تنشأ له علاقة خاصة به والحبُ له من نوع خاص، ودون ذلك مستحيل. *فقال:* ليس المراد من الحب، الحب من جانب واحد، بل المراد منه الحب الثنائي أي حب الخالق وحب المخلوق، فحين يبدي الإنسان هذا الحب يتلقى من الله ﷻ أيضا جواب الحب، لكي يحرقا ضعف البشرية ويستوليا معا على الوجود الروحاني كله مثل نار الصاعقة التي حين تسقط على الإنسان تصدر من داخله أيضا نار فيموت. (*أي حين تسقط صاعقة البرق على الإنسان يحترق ويصبح رمادا، ويجب أن يكون في هذا الحب نار وحرقة مثل ذلك.*)

ومن معاني رمضان الحر والحرارة التي تحرق ضعف الإنسان وعاداته السيئة كلها فتستولي الروحانية على كيان المرء كله. هذه هي غاية الإنسان وهذا هو الهدف الذي من أجله يمرِّرنا الله بشهر رمضان. فهذا هو مستوى عبادة الله الذي وضعه المسيح الموعود عليه السلام أمامنا، وعندما ينال الإنسان هذا المستوى يغلب حب الله تعالى على كافة أنواع الحب ويتحرر الإنسان من كل أنواع الشرك. ندعو الله تعالى أن يوفقنا للعبادة على هذا المنوال في شهر رمضان الكريم خاصة، وأن يترسخ حبه في قلوبنا ثم يدوم هذا الحب.

الأمر الثاني الذي أمرنا الله به في هذه الآية هو "وبالوالدين إحسانا"، وهذا الترتيب في الأحكام ترتيب طبيعي في حياة الإنسان. من المعلوم أن الوالدين يعتنيان بحوائج الأولاد وتربيتهم بعد الله تعالى. وهم يسعون الجهد المستطاع ليربّوا أولادهم على أحسن وجه ويقدمون من أجلهم تضحيات لا تُحصى مهما كانوا فقراء. يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾. في بعض الأحيان تصلني الشكاوى من قبل الآباء - ليس فقط من الآباء الذين أولادهم جهلاء بل من آباء الأولاد المثقفين أيضا - يقولون بأن أولادهم عصاة، ولا يقتصر الأمر على أنهم لا يؤدون حقوقهم بل يظلمونهم أيضا. وفي بعض الأحيان تكتب الأخوات عن إخوتهن بأنهم لا يتورعون من رفع الأيدي على الآباء، ويسيئون إلى آبائهم إذا كان الأمر يتعلق بتقسيم العقارات. فعندما يطمع الأولاد في عقار آبائهم في حياتهم تلاحَظ مثل هذه الإساءات، وفي حال تسليم الآباء عقاراتهم إلى أولادهم يقسو الأولاد عليهم أكثر. توجد في مجتمعنا أيضا بعض الأمثلة بحيث حين يسلّم الآباء العقار إلى أولادهم فالآباء الذين كانوا يملكون العقار يصبحون مدفوعين بالأبواب. وهنا في هذا البلد أيضا عندما يدخل الأولاد في مرحلة الفتوة يزدادون إساءةً إلى آبائهم مستغلين الحرية. والتعليم السائد في هذه المجتمعات لا يعلّم الأولاد احترام الوالدين لأنه يقال هنا عادة بأن الأولاد أحرار بعد بلوغهم عمرا معينا. وبسبب هذه الحرية المزعومة لا يحترم الأولاد كبارهم احتراما لائقا ولا يحترمون آباءهم كما يجب. هذا ليس تقدما بل هو جهل تام. إن التعليم الإسلامي الجميل هو: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي احترموهم ولا تقولوا لهم أفٍّ، هو الذي يقيم احترام الوالدين ويحضّ على أنْ يكافئهم الأولاد بالإحسان كما أحسنوا إليهم. المراد من الإحسان هو أن يقوم المرء بكل عمل على أحسن وجه وإلا فإن مكافأة الوالدين على مننهم مستحيلة كما قال النبي ﷺ. فما أجمله من تعليم أعطاه الله تعالى الأولادَ مقابل تلك المنن حيث يأمرهم أن يدْعوا لوالديهم قائلين: ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. فهذه هي الأخلاق الـمُثلى التي يعلّمها الإسلام أتباعه للإحسان إلى الآباء. وهذا هو المستوى الأعلى الذي يجب أن يحتلّه كل مسلم بصدد الإحسان إلى والديه. وهذا الدعاء لا يدعو به المرء لوالديه في حياتهما فقط بل يمكن أن يدعو به بعد وفاتهما أيضا لرفع درجاتهما. أي يدعو المرء في حياتهما أيضا أن يسد الله بهذا الدعاء التقصير الذي صدر منه بحقهما، ويرحمهم رحمة خاصة منه، ويدعو أيضا أن تستمر سلسلة رحمة الله بهم في الآخرة أيضا وأن يرفع الله درجاتهما دائما.

يقول المسيح الموعود عليه السلام في شرح الآية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾:

"انظروا إلى حقيقة الربوبية، يكون الإنسان طفلا صغيرا في بداية الأمر لا حول له ولا قوة، حيث تخدمه الأم بكل ما يمكن، ويتكفّل الأب بمهمات الأم في هذه الحالة. أي قد خلق الله تعالى شخصين بفضله المحض لرعاية خلق ضعيف، وألقى عليهما ظل الحب من أنوار حبه. ولكن يجب الانتباه إلى أن حب الوالدين مؤقت، وحب الله هو الحب الحقيقي. فلا يستطيع أحد أن يحب أحدا – سواء أكان صديقا أو مساويا له في المرتبة أو حاكما – ما لم يُلقَ الحبُّ في القلوب من الله تعالى. وإنه مِن سرٍّ كمال ربوبية الله أن الوالدين يحبان الأولاد ويتحملان كل نوع من الآلام بصدر منشرح في سبيل كفالتهم لدرجة لا يدّخران جهدا في التضحية بحياتهما أيضا من أجل حياتهم." أي يتحمل الآباء كل أنواع المشقة والمعاناة في سبيل تربيتهم.

ثم يقول المسيح الموعود عليه السلام في شرح الآية: ﴿فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا﴾؛ "الخطاب في هذه الآية موجَّه إلى النبي ﷺ ولكن مقصده الحقيقي هي الأمة لأن والدا النبي ﷺ قد ماتا في صغره. والحق أن في ذلك سرًّا، وهو أن كل عاقل يستطيع أن يفهم من الآية أنه إذا كان النبي ﷺ قد أُمر أن يُكرم والديه ويقول لهما قولا كريما، فكم بالحري بالآخرين أن يكرموا آباءهم! وإلى هذا الأمر تشير آية أخرى وهي: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ففي هذه الآية قد وُضِّح لعبدة الأوثان أن الأوثان ليست شيئا ولا منّة لها عليكم إذ لم تخلقكم ولم تكْفَلْكُم في صغركم. ولو أجاز اللهُ أن يُعبَد معه أحد لأمر أن تعبدوا آباءكم لأنهم أرباب لكم بصورة مجازية، أي هم الذين ربوكم. ومن الطبيعي أن كل شخص يحمي أولاده من الضياع في الصغر، حتى الدواب والطيور تفعل ذلك، وهكذا فإنها تقوم بالربوبية نوعا ما بعد ربوبية الله رب الأرباب. وإن الحماس للربوبية أيضا يأتي من الله تعالى." (حقيقة الوحي)

أي أن الله تعالى هو الذي أودع طبيعةَ الآباء حماسا لتربية الأولاد ورعايتهم وحبهم ووُدّهم. وهذه هي مكانة الآباء التي يجب أن نضعها أمام أعيننا دائما. لقد جاء في الحديث الشريف: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ.

والحكم التالي الوارد في هذه الآيات هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ (الأنعام ١٥٢)، وله معانٍ أخرى، وهنا يتضح جمال آخر لأحكام القرآن حيث أمر الأولادَ أولا أن يخدموا الوالدين ويحسنوا إليهما ولا يتأفَّفوا على أي تصرف منهما. لا يعترض الإنسان على شيء إلا إذا استاء منه، ولكن القرآن الكريم أمر هنا بعدم الردّ على الوالدين ولو تضايقتم ببعض تصرفاتهما بل ينبغي أن تبدوا الرحمة والطاعة لهما مقابل ذلك. وبعد ذلك أُمر الوالدان الآن بتربية أولادهم تربية حسنة، ويجب ألا يحول أي أمر –مهما كان– دون هذه التربية، كما يجب ألا يحول الفقر أيضا دونها. وجُعل من واجب الوالدين أن يهتموا بتربية أولادهما اهتمامًا بالغًا حتى لا يصبحوا أمواتًا من الناحية الأخلاقية والروحانية، أي يجب ألا تقتلوهم بسبب إهمالكم أمورَ صحتهم، وألا تنشغلوا عن صحتهم في توفير الأموال دون حاجة قصوى إليها. فإن أعطي للوالدين مقام الربوبية فقد فُرِض عليهم الاهتمام بحاجاتهم ومن واجب الوالدين جعْلَ أولادهم جزءًا هامًا ومفيدًا للمجتمع، وإن عكسه يساوي قتلهم. إن الإنسان العاقل لا يمكنه قتل أولاده اللهم إلا بعض المجانين أو الذين نسوا الله تعالى والذين لا يتبعون إلا أهواءهم النفسانية وهناك أمثلة كثيرة لذلك تبرز للعيان بين

حين وآخر وتذكرها الجرائد أن أحدًا قتل أولاده بالتواطؤ مع أحد أصدقائه، أو تحدث مثل هذه الأحداث في البلاد الفقيرة حيث يحرق الوالدان نفسَيْهما وأولادَهما بسبب الأوضاع، وإنها أيضا حالة اليأس المتفاقمة التي توصف بالجنون، ولكن لا يحدث مثل ذلك عمومًا، فإن لهذه الآية وللقتل المذكور فيها معاني مختلفة؛ أحدها: إذا كنتم لا تربّون الأولاد تربية حسنة، ولا تهتمّون بتعليمهم فإن هذا يماثل قتلهم. بعض الناس لا يهتمون بتربية أولادهم لانشغالهم في الأعمال والتجارات بل ينسونهم كليًّا مما يؤدي إلى انحراف الأولاد، ووُجدتْ الآن مثل هذه الشكاوي في الجماعة أيضا، حيث تشكو الأمهات أن أزواجهن لا يعطون وقتًا للأولاد بسبب انشغالهم في الأعمال وغيابهم عن البيت وبالتالي تُساء تربية الأولاد ولاسيما عندما يدخلون في سن المراهقة والشباب فإنهم في هذه المرحلة يحتاجون إلى اهتمام الوالد ووقتِه وصداقتِه أيضا - ولقد سبق أن لفتّ انتباهكم إلى هذا الأمر مرارًا — وإلا فسيتعلمون أمورًا سيئة من الخارج وهذا بمنـــزلة قتلهم أخلاقيًا. مهما قدّم الأبُ أعذارًا - بأن ما يفعله إنما هو للأولاد أيضا — إلا أنها ليست صحيحة إذ ما الفائدة لتلك الأموال والثروة التي تُفسد تربية الأولاد، ثم إذا ترك الآباء مثل هذه الثروة فما أدراهم أن أولادهم سيحفظونها ويستفيدون بها، بل بسبب التربية السيئة

تتبدد الثروات ويفسد الأولاد أيضا.

إضافة إلى ذلك هناك صورة أخرى لقتل الأولاد وهي أيضا تنتشر في الدول الغربية وفي جماعتنا أيضا وهي أن الأمهات يخرجن للعمل ولا يركزن على أمور بيوتهن تركيزًا كافيًا بل يقضين وقتهن هنا وهناك بحجة العمل والوظيفة. وعندما يعود أولادهن من المدرسة لا يجدون في البيت أحدًا يهتمّ بهم. تحتج الأمهات بأنهن يعملن لتأمين نفقات البيت، ولكنْ هناك عدد كبير منهن يعملن من أجل تأمين نفقاتهن، فلما يرجعن إلى البيت متعبات لا يسعهن الاهتمام بالأولاد، وهكذا فإن الأولاد يفسدون جراء عدم تلقيهم الاهتمام الكافي وشعورهم بالدونية. وهناك زوجات وأمهاتٌ يضطررن للعمل لأن أزواجهن كسالى لا يعملون شيئا. فينبغي أن يخاف الله مثل هؤلاء الأزواج والآباء لأنهم بكسلهم هذا يتسببون في قتل أولادهم.

ثم إذا كان الزوج لا يهتم بزوجته بطريقة مناسبة فهو أيضا نوع من القتل. وقد ذكر المصلح الموعود ﷺ مثالا لذلك حيث قال لو لم يتم الاهتمام بغذاء جيد للمرأة أثناء حملها فإن ذلك يؤدي إلى إضعاف الجنين وهو أيضا نوع من القتل للأولاد.

ومن معانيها منع الإنجاب من فقر. يجوز منع الإنجاب نظرًا إلى صحة الوالدة، أو في بعض الأحيان ينصح الأطباء بإسقاط الجنين نظرًا إلى وضعه الذي يمكن أن يتحول إلى خطر على حياة الأم، فهو جائز أيضا، أما إسقاطه خشية الفقر فلا يجوز بحال من الأحوال. يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ويقول أيضا: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء ٣٢)﴾، أي إن مثل هذا القتل جريمة عظمى. فالمسلم الحقيقي هو مَن لا يتورط في مثل هذه الأمور التي تعتبر من الكبائر بل إنه يتجنب الصغائر أيضا، لذلك ينبغي أن ينتبه إلى هذا الأمر المقصّرون ويهتموا بتربية أولادهم وإعطائهم الوقت ويهتموا بدراستهم وربطهم مع الجماعة. يجب أن تخلقوا في بيوتكم جوًّا يتربى فيه الأولاد تربية صالحة لكي يصبحوا جزءًا جيدًا للمجتمع ويساهموا في رقي البلد والشعب. فإن تربية الأولاد وتعليمهم مسؤولية

الوالدَين. وثمة حاجة قصوى أن يهتم الوالدان بتعليم أولادهم وتربيتهم بدلا من تحقيق رغباتهم. لا يسع الآباء القول أن تربية الأطفال شغل النساء، ولا يسع الأمهات أن يلقين هذه المسؤولية على عواتق الآباء فحسب، بل هي مهمة الاثنين، واعلموا أن التربية الحسنة المثالية هي تلك التي يلعب فيها الأم والأب دورًا هامًا. انظروا في هذه البلدان حيث يكثر عدد الأولاد الذين يعيشون مع أحد الوالدين بسبب ارتفاع نسبة الطلاق وبالتالي تفسد تربيتهم لدرجة أن المسؤولين في المدارس والشرطة في محيط تلك المدارس أيضا متضايقون بسببهم، ومِن مثل هؤلاء الأطفال مَن يتورطون في ارتكاب الجرائم. ولا ينضم إلى فئة المجرمين إلا مثل هؤلاء الأطفال الذين تفسد تربيتهم من البداية ولا يتلقون انتباهًا واهتمامًا كافيًا من الوالدين.

وفي هذه المناسبة أريد أن أذكر أمرًا مقلقًا آخر وهو أن نسبة الطلاق عندنا أيضا بدأت ترتفع، وهو ما يؤدي إلى فساد الأولاد أيضا. يتم الطلاق أحيانًا بعد ولادة الأطفال فورًا وأحيانًا بعد سنين عدَدًا، ولكن ينبغي أن يتخلى الوالدان عن أنانيتهم ويضحّيا من أجل الأولاد. وفقنا الله تعالى للعمل بأحكام القرآن. آمين.

لقد ذكرت إلى الآن ثلاثة أحكام فحسب وأتناول الباقي في المستقبل إن شاء الله.

❁❁❁❁❁